جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

اختلاف روايات الحديث النبوي وأثره على الاستنباط البلاغي

الدكتور

محمود شعبان إبراهيم

أستاذ مساعد بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

العدد التاسع عشر
للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م
الجزء السادس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٥م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل علينا أفضل كتبه وأرسل إلينا خاتم أنبيائه وأفضل رسله، والصلاة والسلام على أفصح العرب مَنْ تشرَّفت لغة الضاد بالجريان على لسانه وسعدت بالرى من بيانه....

وبعد

فلقد شَرفتُ من قبل بدراستين تحليليتين للسنه النبوية فى خطبة عرفات وفى حديث الصخرة فوجدت البيان النبوى يبزُّ البيان البشرى مطلقًا مما علق قلبى بدراسة أخرى حول سنة أفصح البشر ﷺ، ولعلمى أن الله أكرمنا بوحيين وحى لفظه ومعناه من الله وهو القرآن ووحى معناه من الله ولفظه من رسول الله ﷺ (٣،٤ سورة النجم).

هذا.... وقد كنت أشرح حديث الغثائية للطلبة وذكرت رواياته وعلقت على اختلاف الروايات ببيان الفوارق بينها وأثر ذلك على المعنى، فوجدت أن كل رواية تكاد تمثل مرحلة مختلفة عن مرحلة أخرى تتحدث عنها رواية أخرى، وكأن الحديث تكرر على لسان رسول الله ﷺ ليتحدث فى كل مرة عن مرحلة، وهذا من عظيم بلاغته وجميل عطاء ربه له، ولما كان الوحى الأول وهو القرآن نزل على سبعة أحرف وتعددت قراءاته الصحيحة المعتبر قرآنيتها وكانت كل قراءة تفيده معنى لا تفيده الأخرى فقلت هل اختلاف الروايات الصحيحة فى

الحديث يشبه القراءات المتواترة فى القرآن ولما كتب الناس من قبل فى التوجيه البلاغى لاختلاف القراءات المتواترة[1] أحببت أن اكتب فى مثيل هذا فى روايات الحديث باحثًا عن بلاغة أفصح البشر، وكان هذا سببًا فى هذا البحث، وبدأت أذكر الحديث ورواياته فأجد اختلافًا مرة فى حرف ومرة فى كلمة ومرة فى جملة، وبدأت البحث عن سر الاختلاف وأثره على المعنى البلاغى، وكان منهجى فى هذا البحث:

١- أن اذكر الحديث مضبوطًا بالشكل بكل رواياته مع تخريج الحديث والحكم عليه.

٢- أقوم بدراسة تحليلة لألفاظ الحديث وتراكيبه.

٣- ادرس الفوارق بين الروايات وما ترتب على ذلك من اختلاف فى المعنى مبينًا الأسرار البلاغية لذلك.

٤- احاول التعليل لهذه الفوارق البلاغية مستعينًا بالله أولًا ثم بما كتبه سلفنا من البلاغيين وبعض شراح الحديث الذين ندر نقلى عنهم لقلة الشروح لهذه الأحاديث لأنها ليست فى البخارى ومسلم الذين كثرت الشروح حولهما.

وقد اخترت هذه الأحاديث الثلاثة لاشتمالها على الاختلاف فى الحرف والاسم والفعل والجملة، ولترتب آثار عظيمة بلاغيًا على هذا الاختلاف -كما سيأتيك أثناء الدراسة إن شاء الله-.

(١) ينظر التوجيه البلاغى للقراءات القرآنية للدكتور أحمد سعد محمد، ط مكتبة الآداب

وقد تكون هذا البحث من مقدمة –هى ما بين يديك–، وتمهيد ذكرت فيه أسباب اختلاف رويات الحديث وما الذى ابحث عنه فى هذا الاختلاف ذاكرًا جهود السابقين فى هذا الباب ومحددًا مطلوبى من هذا البحث، وفصول ثلاثة عن الأحاديث الثلاثة وخاتمة ذكرت فيها ما كان يؤمل أن يصل إليه الباحث من وراء هذه الدراسة.

وختاماً:

أسأل الله ﷻ القبول والتوفيق والسداد والرشاد، وأسألك أخى القارئ إن وجدت خيرًا أن تدعو لى، وإن وجدت غير ذلك أن تصوِّب للناس وأن تهاتفنا بالصواب، واعلم أنى راجع إلى الصواب مستغفر ربى من الخطأ شاكرٌ لك على إقامتك أخيك على طريق الحق، وهذا حقى عليك بل حق العلم على وعليك، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

وما أبرئ نفسى إننى بشر ∴ أسهو وأخطئ ما لم يحمنى القدر.

❁ ❁ ❁

التمهيد

حديثى عن اختلاف رويات الحديث ليس كحديث العلامة أبى بكر بن فورك فى مشكل الحديث وبيانه؛ فلا إشكال فى الرويات التى ذكرتها، ولست باحثًا عن تأويل ما اختلف من الحديث كما فعل العلامة بن قتيبة الدينورى فى تأويل مختلف الحديث، ولا باحثًا عن إعراب وبيان ما أشكل من رويات الحديث وألفاظه كما فعل العلامة العكبرى فى إتحاف الحفيف بإعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث، إنما أنا باحث عن التوجيه البلاغى لاختلاف الرويات استشرافًا لبيان معنى كون النبى ﷺ أعطى جوامع الكلم، فروايات الحديث التى معى لم يكن الاختلاف فيها اختلاف تضاد بل كان اختلاف تنوع وتغاير يثرى المعنى وينميه.

وإذا كان من هدى النبى فى تبليغ السنة تنبيه الناس –كما فى أحاديث استنصات الناس–، وتشويقهم للسماع بالسؤال وتخول مواطن الإقبال منهم، وإفهامهم بالتروى فى الحديث وتكراره ثلاثًا فى بعض الأحيان[1].

وإذا كانت قلوب الصحابة أوعية علم فلم اختلفت الرويات هل لتعدد المناسبات التى قال فيها النبى ﷺ الحديث؟ أم لأن بعض الصحابة حضر مالم يحضرهم الآخر؟ أم لأن كل صحابى يذكر ما يستدل به على مطلوبه من الحديث؟ أم لأسباب أخرى ذكرها علماء الحديث فى كتبهم[2]، لكن مطلوبى هنا هو العلة الأولى ألا وهى تعدد المناسبات، وهذا التى تعنى به الدراسة البلاغية بحثًا فى السياق والمقام وعلة الاختلاف فى كلٍّ.

(١) ينظر السنة النبوية مكانتها. عوامل بقائها. تدوينها للدكتور عبد المهدى عبد القادر، ط دار الاعتصام ص ٦٢
(٢) ينظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينورى، ط دار الكتب الإسلامية، ت عبد القادر أحمد عطا، مشكل الحديث وبيانه لابن فورك، ط دار الكتب الحديثة، ف موسى محمد على

الحديث الأول

روى الإمام أبو داوود فى سننه فى كتاب الملاحم باب فى تداعى الأمم على الإسلام من حديث ثوبان مولى النبى ﷺ أن النبى ﷺ قال "يُوْشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ المَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ الوَهَنَ، فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الوَهَنُ؟ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ".ا.هـ

كما روى الإمام أحمد فى مسنده قال: حدثنا أبو النضر بن المبارك حدثنا مرزوق أبو عبد الله الحمصى حدثنا أبو أسماء الرحبى عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال: رسول الله ﷺ "يُوْشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَيَا الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ الله ﷺ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ المَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِى قُلُوبِكُمْ الوَهَنَ قُلْنَا وَمَا الوَهَنُ؟ قَالَ: حُبُّ الحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ". انتهى من المسند برقم ٢٢٢٩٦

وفى تعليق العلامة الشيخ شاكر على الحديث قال إسناده صحيح وأبو عبد الله مرزوق الحمصى الشامى وثَّقه ابن شاهين وابن حبان، وقال ابن معين لا بأس به والحديث رواه أبو داوود[1].

(١) ينظر سنن أبى داوود جـ٤ ص١٠٨، كما ينظر مسند الإمام أحمد بتحقيق العلامة أحمد شاكر جـ١٦ ص٢٩٥ برقم ٢٢٢٩٦

أولًا: الدراسة التحليلية:

قال ﷺ "يوشك أن تداعى عليكم الأمم": "يوشك" فعل مضارع من أفعال المقاربة يعَبَّر به عن قرب الشئ استُخْدِم هنا للتحذير وإيقاظ الهمم استعدادًا لهذا الخطر المُحَذَّر منه بنفى أسبابه والعمل فى زوالها قبل أن تكون واقعًا يصعب دفعه.

"تداعى" من الدعاء وهو(كالنداء، والدعاء إلى الشئ الحث على قصده)[1]، وأتى التعبير عنه بالمضارع كسابقه فى إشارة إلى أن الأمر سيطول وسيستمر فترة طويلة فى هذا التداعى، والتعبير بعلى يشْعِرُ بعلِّية هؤلاء القوم الذين سيدعو بعضهم بعضًا للانقضاض على أمة الإسلام، كما يشْعِر بضعفنا المغرى لهؤلاء بالرحيل إلى بلادنا للاستيلاء على خيراتنا وإذلال أهلنا، وهؤلاء الذين سيتداعون علينا ليسوا أفرادًا ولا جماعات صغيرة وإنما هم أمم ومجموعات كبيرة حركها ضغن على الإسلام وكراهية لأبنائه.

"الأمم" جمع مفرده أمة والأمة (كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان هذا الأمر تسخيرًا أو اختيارًا)[2]والمعنى اقترب زمان ستكونون فيه من الضعف بمكان بحيث ستجتمع أمم شتى مع اختلاف ألوانها ومللها ونحلها ومعتقداتها وبيئاتها ستجتمع ويدعو بعضها بعضًا للانقضاض عليكم من كل صوب وحدب.

(١) المفردات للأصفهانى ص١٦٩ ط دار المعرفة بيروت

(٢) ينظر المفردات ص٢٣

"كما تداعى الأكلة إلى قصعتها": الأكلة جمع مفرده آكل، والقصعة ما يوضع فيه الطعام للعدد من الرجال، وهذا تشبيه فى قمة البلاغة والبيان عن الحالة والعلة من هذا التداعى فإن الحبيب ﷺ يشبه تداعى الأمم فيما بينها للرحيل إلى بلاد الإسلام والانقضاض على خيراتها كما يدعوالأكلة بعضهم بعضًا للرحيل إلى الطعام أو للنزول على هذا الطعام بعدما أُعِدَّ، وفيه بيان لشره هؤلاء إلى دماء المسلمين وطمعهم فى خيرات المسلمين يدفعهم لذلك ضغن ضغين وحاجة لهذا المال، فإن الأكلة لا يدعو بعضهم بعضًا إلى الطعام إلا عند الحاجة إليه؛ ففيه دليل على حاجتهم وشرههم فالجامع بين المشبه والمشبه به هو الحاجة والرغبة الكامنة المبنية على عقيدة محركة كالفطرة الراسخة؛ فكما أن الأكل فطرة وحاجة وغريزة محركة فإن لهم حاجة وعقيدة تحركهم لهذا التداعى توصل إلى التلذذ بهذا الفعل فكما تلذذ بعض الأكلة بأكلهم فإن من المقاتلين من يسفك الدماء متلذذًا بذلك مدفوعًا بعقيدة مكذوبة لكنها ترسخت فيه فيشبه أن تكون خالطت فطرته فعكرت صفوها فجعلت من فرحته بالدماء ما يشبه تلذذ الآكل بأكله، وفى هذا المقطع من الحديث ما يدفع سببًا متوهما لهذا الضعف ألا وهو الفقر، فإن ظننت أن الأمة فقيرة وصلها لهذا الضعف فقرها تأتى هذه الجملة وهذا التشبيه فيدفع عنك هذا الوهم، إن الأمة آنذاك غنية ثرية بل إن غناها وكثرة الخير فى بلادها أحد الأسباب الرئيسية فى هذا التداعى طمعًا فى هذا الخير، ولهذا لم يكن من الأسباب المحتملة عند الصحابة فلم يسألوا عن الغنى والفقر لأن هذا التشبيه دفع هذا الوهم.

"فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ قال: بل أنتم كثير" التعبير بالفاء فى قوله "فقال قائل" بدلالتها على التعقيب فى حاق موطنه؛ فإنها دلت على قمة المفاجأة التى حدثت للصحابة من الخبر السابق، بل وقمة التعجب لأمة الإسلام التى قهرت الصعاب وأذلت فارس والروم وفتحت المشارق والمغارب بالإسلام فى وقت قياسى لا يكاد يذكر فى عمر الأمم، هل هذه الأمة التى عنوانها الجهاد وذروة سنام دينها الجهاد ستصل إلى هذا الحد من الضعف الذى يطمع الأعداء فيها؟ بل ولم يذكر القائل؛ لأن الأمر يتعجب منه الكل فالقائل يتكلم بلسان الكل، ولم يعين من القائل لأنه لا يتعلق بذكره فائدة لأن الفائدة فى القول لا فى القائل، وهذا الذى سأل يسأل عن علة ثانية بعد علة أولى مدفوعة ألا وهى علة الفقر، العلة الثانية هى القلة هل نحن من القلة بمكان لدرجة أن العدو طمع فينا لهذا الحد، مع أننا عبر تاريخنا لم ننتصر على عدونا بكثرتنا بل فى كل المعارك التى خضناها كنا أقل من أعدائنا حتى غزوة حنين التى قال الله فيها﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، كان عدد المسلمين فيها اثنى عشر ألفا[1] وكان عدد المشركين -على أقل الروايات- خمسة عشر ألفا، بل هناك رواية تقول إنهم كانوا خمسة وعشرين ألفا وخلفهم النساء والأطفال على الركائب والأحمال ملثمين وملثمات إيهامًا لنا أن الكل من المقاتلين، فما تعودت الأمة أن تنصر بكثرتها ولا بعتادها وعددها إنما تنصر بالإيمان بربها ﷻ، لكن الصحابة هنا يسألون عن قلة لافتة للنظر مغرية للعدو وقولهم "نحن" مع قوله "يوشك" يدل على أن الصحابة تخيلوا قرب الأمر كما أراد رسول الله ﷺ وأنه يخاطبهم لا يخاطب

(١) ينظر فى تفسير الآية وعدد الجيش تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٤٣، ط المكتبة التوفيقية.

الأجيال القادمة، بل قولهم "نحن" يدل على أن المراد من قوله "يوشك" قد حدث وأن التعبير أدى المراد منه على أكمل وجه، وقولهم "يومئذ" أى أننا فى هذا الزمن وفى هذه الحالة التى تتحدث عنها سنكون بهذا الوصف من القلة، بل أقول إن قولهم "نحن" وقولهم "يومئذ" وقوله "عليكم" قد يكون له دلالة تربوية وهى أن النبى ﷺ يخاطب الأمة الإسلامية عبر تاريخها وأن الصحابة يتكلمون من منطلق أنهم وإخوانهم من أمة الإسلام الذين سيأتون بعدهم شئ واحد يمثلون أمة الإسلام يتألمون لما يحدث لمن يأتى بعدهم لأنه منهم يحمل الراية التى كانوا يحملون، بل ويتألمون لراية كانوا يحملونها ويتمنون لها دوام الرفعة والعزة، وفيه أن النبى ﷺ يعلمنا أن الأمة شئ واحد عبر أجيالها المتعاقبة، ويجب على الآخرين فيها أن يتعلموا من الأولين وعلى الأولين أن يورثوا الخير للآخرين.

"قال: بل أنتم يومئذ كثير" يجيب النبى ﷺ على التساؤل السابق هل نحن قليلون بهذه الدرجة كما قال ربنا ممتنًا على الصحابة﴿ **وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ** ﴾[الأنفال: ٢٦] الإجابة لا، ليس السبب القلة، بل أنتم يومئذ كثير، بل للإضراب هنا كما هو بَيِّنٌ، والتعبير بالجملة الاسمية "أنتم يومئذ كثير" للدلالة على أن صفة الكثرة راسخة ثابتة مُلازمة لكم فلا تعتريكم فترات قلة بل ستكون كثرتكم واضحة، وقوله "يومئذ" أى فى هذا الزمن الذى سيحدث فيه هذا ستكونون من الكثرة بمكان حتى إنها ستكون كثرة ظاهرة بدليل قوله "كثير" ولم يقل كثيرون، كما قال الله "قليل" فى آية الأنفال ولم يقل "قليلون" لنفس المعنى.

"ولكنكم غثاء كغثاء السيل": الغثاء هو (غثاء السيل والقدر وهو ما يطفح ويتفرَّق من النبات اليابس وزبد القدر ويضرب به المثل فيما يضيع ويذهب غير مُعْتَدٍّبه)(١)، وهو الأوراق الذابلة والفضلات التى يجرفها السيل وهو جار على جانبى الشاطئ، والغثاء هو المشبه به فى هذا التشبيه الكاشف عن السبب الرئيسى فى هذه الحالة وستضاف إليه أسباب أخرى لكن هذا هو الأهم لذا قدمه ﷺ، ويلاحظ أن النبى ﷺ دفع سببين قبل ذلك دفعًا ضمنيا فى الأول وهو الفقر ودفعًا صريحا فى الثانى وهو القلة، وهنا بدأ الحديث عن السبب الحقيقى، ولتعرف هذا التشبيه وقيمته العلمية لابد أن تُدرك وجه الشبه بين الأمة الإسلامية فى هذا التوقيت وبين الغثاء، فالغثاء كثير عدده بلا فائدة وكذلك الأمة الآن كثير عددها بلا فائدة فالأقصى يئن ويرسف تحت أغلال الاحتلال ونحن أمة المليار ونصف لم يتحرك لها ساكن، بل بدأت إسرائيل فى الإعداد للخطوات الأخيرة لهدم الأقصى- لبناء هيكلهم المزعوم ولا حراك لأحد، والغثاء لا يؤبه به ولا يلتفت إليه وكذلك الأمة الآن لا يؤبه بها ولا يلتفت إليها، والغثاء لا فائدة منه وكذلك نحن الآن لا فائدة مرجوة منا لديننا، والغثاء أقل سوق له يؤثر فيه تأثيرًا كبيرًا وكذلك نحن الأقل والأضعف لا نستطيع أن نقاومه، من قال فيهم الله ﷻ ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ** ﴾[البقرة: ٩٦]، ومن قال فيهم الله ﷻ ﴿**بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ** ﴾[الحشر: ١٤]، ومن قال فيهم الله ﷻ ﴿**يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[الحشر: ٢] يمَرِّغون أنوفنا فى التراب ولا نستطيع فعل شئ سوى شجب واستنكار بل وعلى استحياء، والغثاء فى كلٍّ

(١) المفردات ص٣٥٨

مفعول به ولا يكون فاعلًا أبدًا وكذلك الأمة نزلت من وظيفة الفاعل إلى المفعول به لا تأثير لنا فى غيرنا ولا عمل لنا سوى استقبال ضربات أعدائنا التى نستقبلها بفُرقة تشجعهم على المزيد، والغثاء يتأفف منه ولا يمْدَحُ أبدًا بل هو المذموم أبدًا؛ فما رأينا أحدًا تَغَزَّل فيه وفى حسنه قط، وكذلك أمة الإسلام دائمًا فى موطن التهمة وألجأت نفسها إلى أن تكون دائمًا فى موقف المدافع، فعددنا كبير وبلاؤنا مستطير ولا أمل إلا فى العلى الكبير.

"ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم": والنزع جذب الشئ من مقره كنزع القوس عن كبده، ويستعمل ذلك فى الأعراض ومنه نزع العداوة والمحنة والمهابة من القلب قال تعالى ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾[الأعراف: ٤٣]، و[الحجر: ٤٧]، ونزع فلان كذا أى سلب قال تعالى ﴿**قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ**﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى ﴿**وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا**﴾ [النازعات: ١] قيل هى الملائكة التى تنزع الأرواح عن الأشباح، وقوله ﷻ ﴿**تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ**﴾[القمر: ٢٠] قيل تقلع الناس من مقرهم لشدة هبوبها وقيل تنزع أرواحهم من أبدانهم، والتنازع والمنازعة المجاذبة ويعبر بها عن المخاصمة والمجادلة[1].

معذرة أطلت فى بيان معنى النزع خاصة فى الاستعمال القرآنى لأبين أن النزع ليس كالسلب كما يتوهم البعض لأنه سلب بشدة تلك الشدة التى تدل على شئ من المجاذبة والمفاعلة ليست موجودة فى السلب لذا قال النبى ﷺ **"ولينزعن الله"** ولم يقل ليسلبن لأن الشدة مرادة لأنها تضمر خلفها زمنًا طويلًا كان أهل

(١) المفردات ص٤٤٧

الإسلام فيه مُهَابين ومرهوبى الجانب، ويلاحظ المؤكدات من اللام والنون ونسبة الفعل إلى الله ﷻ وما فيها من العظمة، للإشارة إلى الرعب الذى أخبر نبينا ﷺ أنه نصر به شهرًا إشارة إلى أن هذه الهيبة التى كانت تجعل العدو يرانا كثيرًا مع قلتنا، ويهابنا مع قلة عتادنا، وكانت فرائصه ترتعد عندما يسمع بقدومنا تلك الخصوصيات لهذه الأمة ستزول بفعل فاعل، إن أمة تنازلت عن العظمة التى كانت تتبوأ فيها المكان الأكبر بين الأمم لابد أن ترى هذا عند تركها لمنهج ربها الذى فيه عزها، نسبة الفعل إلى الله ﷻ دليل على أن الله تخلى عنا لأننا تركنا شريعته وتنكبنا طريق الوصول إليه.

"من صدور عدوكم المهابة منكم": والعداوة فى القلوب وليست فى الصدور، والصدور أوعية للقلوب، فالصدر مشتمل على القلب وغيره، فلماذا لم يقل النبى ﷺ من قلوب عدوكم وعبر بالصدور؟ فى إشارة إلى أن هذا العدو كان قد امتلأ خوفًا ورعبًا منا حتى ملأ الخوف قلبه بل طفح هذا القلب بالخوف حتى امتلأ الصدر أيضًا هذه الخصيصة وتلك النعمة ستتحول ولن نصبح كسابق عهدنا إلا إن عدنا لمنهج ربنا، كما قال الله ﷻ ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ** ﴾[آل عمران: ١١٨]، فالآية تنهانا عن اتخاذ اليهود والنصارى والمشركين أحبابًا وأصدقاء، فبطانة الثوب ألصق شئ ببدن الإنسان فلا يحل أن يكونوا بطانة لنا فهذه الدرجة من القرب والود لا تكون إلا مع أخيك المؤمن، هذا نهى ربانى يعلله ربنا ﷻ بعلل منها **"لا يألونكم خبالًا"** ومنها **"ودوا ما عنتم"** أى لا يقصرون فى سوق الشر إليكم

ويتمنون عنتكم ومشقتكم، ومنها **"قد بدت البغضاء من أفواههم"** أى ظهرت كراهيتهم لكم على فلتات ألسنتهم كما قال "بوش الابن" فى بداية الألفية الثالثة لميلاد المسيح سأعيدها حربًا صليبية جذعة، **"وما تخفى صدورهم أكبر"** أ ى أكبر من الضغن الذى ظهر على فلتات ألسنتهم والضغن فى القلوب فطفح فملأ الصدور فطفح فظهر على فلتات الألسن، والمعنى أنهم يتنفسون بغضًا لكم، لكن هذا لمن يعقل لا يراه ولايدركه كل الناس إنما آل العقل فقط هم الذين يدركونه واضحًا ظاهرًا كالشمس، وتعبير النبى ﷺ هنا من هذا الباب لكنه تعبير عما كان وكيف نزع بعسر مع تطاول الزمن وتتابع النكبات الإيمانية والقلبية على الأمة الإسلامية، والمهابة من الهيبة وهى الخوف وذلك الذى كان لكنه نزع الآن وحلَّت الجرأة محله فحرمنا أعظم ميزة فى حربنا وهى تخص الجانب النفسى عند القتال، وما أدراك ما الجانب النفسى الذى كان عاملًا كبيرًا من عوامل تتابع انتصارات الأمة عبر تاريخها، فقد كان الخوف لا يعرف طريقًا لقلوبهم لأنهم مقدمون على جنة عرضها السموات والأرض مقدمون على إحدى الحسنيين نصر أو شهادة، أصحاب قضية وحملة رسالة لهم رب يتوجهون إليه بجهادهم لا يفكرون فى أنفسهم بل باعوا أنفسهم لله ﷻ كما قال تعالى ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ** ﴾ [التوبة: ١١١] كذلك كنا فكانت العزة فلما تركنا هذا المنهج هُنَّا على ربنا ﷻ فنزع الهيبة من قلوب أعدائنا.

"وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن": (والقذف الرمى البعيد ولاعتبار البعد فيه قيل منزل قَذَفٌ وقَذِيفٌ، وبلدة قذوف بعيدة ومنه **"فاقذفيه فى اليم"** أى

اطرحيه)[1]فالقذف إذن رمى الشئ بشدة كما أن النزع سلب بشدة فكذلك القذف يقابله، فبينهما طباق كما ترى، سينزع المهابة من قلوب أعدائنا، وستتحول الأمور إلى الضد والنقيض سيقذف الوهن والضعف والخوف والجبن فى قلوبنا هذا الوهن سيعرفه النبى ﷺ بعد قليل بتعريف خاص، الله سيقذف الوهن ولكن أتى التعبير محفوفًا بالمؤكدات من اللام والنون والإسناد إلى الله وما فيها من العظمة والقوة، وكما أن النزع هناك أضمر زمنًا فالقذف كذلك هنا يضمر أزمانا تعاقبت علينا ونحن الأبعد عن منهج الله ﷻ فكان هذا ثمرة لذاك، وهناك قال إن النزع كان من الصدور وبينا علته إشارة إلى أن الهيبة منا كانت تملأ قلوبهم وصدورهم من الكثرة أما هنا فإن الوهن فى القلوب فقط لم تمتلئ القلوب فقط، وفى هذا دليل أن الخير ستكون له بقية وعلى أن الأمل فى اليقظة سيظل باقيا ودليل على خصوصية الإسلام فكل شئ إذا ضُرِبَ ضَعُفَ إلا الإسلام؛ فإنه كلما ضرب قوى بأمرالله ﷻ، وأدل شئ على ذلك التتار الذين اكتسحوا البلاد والعباد وكانت الأمة آنذاك فى مثل ما يصفه رسول الله ﷺ فى هذا الحديث فسرعان ما هبت من سباتها، وقيض الله ﷻ لها قطز الذى قادها للعزة بعد ذل كان قد خيم على البلاد زمنًا، وكذلك الصليبيون لما احتلوا الأقصى- وكانت فى سُبَات عميق يشبه ما يوَصِّفه رسول الله ﷺ فى هذا الحديث ولكن أكرمها الله ﷻ بصلاح الدين الذى لم شعثها وجمع شملها وانتصرت بفضل الله ﷻ على عدوها وطردته بعد أن دنس الأقصى عقودًا، لعله قال "قلوبكم" لهذا المعنى.

(١) المفردات ص٣٩٧

"فقال قائل: يا رسول الله ﷺ وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت": الوهن معناه معروف وهو الضعف (وهذا الضعف قد يكون من حيث الخَلْق أو الخُلُق قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾[مريم: ٤]، وقال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾[لقمان: ١٤] أى كلما عظم فى بطنها زادها ضعفًا على ضعف)[1]، فالمعنى واضح عند أرباب الفصاحة والبلاغة وهم الصحابة الأقحاح الفصحاء، فلماذا السؤال؟ هل من باب الأدب مع رسول الله ﷺ؟، أو من باب قلنا لعله يسميه بغير اسمه، أو من التعجب فهل سنصل إلى هذا الحد من الضعف يا رسول الله –صلوات الله وسلامه عليك–؟، ولاحظ أيضًا "فقال قائل" بالفاء التى تفيد السرعة والتعقيب، وعدم ذكر القائل لأن الأمر بالتركيز على المقول لا القائل يدل كل ذلك على أن الصحابة خُطِفَتْ قلوبهم قلقًا على أمتهم، وأن الأمر يمَثِّلُ مفاجأة كبيرة لهم وكان تعريف النبى ﷺ للوهن كاشفًا عن الداء العضال الذى وصّل الأمة لهذا الحد من الضعف فما هو إذن؟ إنه حب الدنيا والحب (من المحبة وهى إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا وهى على ثلاثة أوجه: محبة اللذة كمحبة الرجل للمرأة ومنه ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾[الإنسان: ٨]، ومحبة للنفع كمحبة شئ ينتفع به ومنه ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الصف: ١٣]، ومحبة للفضل كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض لأصل العلم، وربما فُسِّرت المحبة بالإرادة فى نحو قوله تعالى ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وليس كذلك فإن المحبة أبلغ من الإرادة فكل محبة إرادة وليس كل إرادة محبة،

(١) المفردات ص٥٣٥

وقوله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة: ٥٤] فمحبة الله تعالى للعبد إنعامه عليه، ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه)[1].

وحب الدنيا الوارد فى الحديث هو من الأول وهو المحبة للذة كمحبة الرجل للمرأة وللطعام والملبس والمسكن والمنكح إلى آخر شهوات الدنيا. فالنبى ﷺ يعرف الوهن بأنه انشغال القلب بالشهوات والملذات الدنيوية عن أمر الله ﷻ من الجهاد الواجب دفعًا للأعداء الذين أعدوا العدة للانقضاض على بلدنا، والآلة الإعلامية فى بلادهم بدأت تعمل عملها فى الإعداد لذلك فالأمر فى العلن، ومع ذلك الأمة لم تستعد وانشغلت بشهواتها وملذاتها، دل على ذلك "إلى" التى وردت فى أول الحديث فى قوله "كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" فهى للانتهاء تُضمر رحلة الأعداء إلينا وتَجَهُّزهم، ومع ذلك لم نستعد لأن الدينا أكلت قلوبنا وبسطت سلطانها علينا حتى قلنا بلسان الحال شغلتنا أموالنا وأهلونا ليس هذا فحسب، بل انضاف إليه أمر آخر وهو كراهية الموت، إنا كنا أمة تحرص على الموت كما يحرص أعداؤنا على الحياة بشهادة أعدائنا فما الذى حدث؟ إنه الإيمان المحرك للقلوب قد ضَعُفَ، إنها الدنيا غزت القلوب لكن ما الموت الذى نكرهه إن الموت أنواع (بحسب أنواع الحياة، فالأول منه ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة فى الإنسان والحيوان والنبات نحو ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ [ق: ١١]، والثانى زوال القوة الحاسة ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾[مريم: ٢٣]، والثالث زوال القوة العاقلة وهى الجهالة نحو ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وإياه قصد بقوله ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[النمل: ٨٠]، الرابع

(١) المفردات ص١٠٥

الحزن المكدر للحياة وإياه قصد بقوله ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾[إبراهيم: ١٧] والخامس المنام فقيل النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل وعلى هذا النحو سماهما الله ﷻ توفيا فقال﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] فقد قيل نفى الموت هو عن أرواحهم فإنه نبه على تنعمهم، وقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، و [الأنبياء: ٣٥]، و [العنكبوت: ٥٧] فعبارة عن زوال القوة الحيوانية وإبانة الروح عن الجسد)[1]هذه معانى الموت فما الموت المقصود فى الحديث إنه الخامس والأخير بالطبع لكن كيف تكون كراهية الموت سببًا لكل هذه المصائب والنكبات إن القرآن سمى الموت مصيبة والفطرة تكره المصائب قال الله تعالى ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦] وقال تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] فنقص النفس هو الموت، وسماه الله ﷻ مصيبة، وأمر بالصبر عليه، وبشر الصابرين بالخير كله لأنهم فوَّضوا الأمر كله لله ﷻ وبَينوا أنهم مِلْكٌ لله ﷻ يفعل فيهم ما يشاء وأنهم راجعون إليه سيحاسبهم ويأملون فى عفوه، الخلاصة هذا الموت الفطرة لا تحبه فكيف تكون كراهية الموت الفطرية سر هذه الشرور العظيمة؟ الإجابة أن هذا من طبائع النفوس، لكن المسلمين خصوا بتربية نبوية نزعت الدنيا من قلوبهم وأحلت محلها الرغبة فيما عند الله ﷻ من الأجر العظيم الذى أعده للمجاهدين والشهداء منهم، فلما رغبت النفوس فيما أعده الله ﷻ

(١) المفردات ص٤٧٦

للشهداء أخرجت الدنيا من قلبها بل استكثرت بقاءها فى الدنيا كما قال أحدهم إن عشت إلى أن آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة، إذن لو كان حب الدنيا مرض فإن الأمة الإسلامية عُولجت من هذا المرض بالتربية الخاصة التى ربَّاها عليها رسول الله ﷺ بالوحى الإلهى الذى مثَّل آخر إرسال السماء للأرض، والمقصود هنا أن الأمة تركت الجهاد وزهدت فى الشهادة وركنت إلى الدنيا وتركت منهج العزة فكان ما كان مما وصَّفه نبينا العدنان ﷺ.

ثانيا: المقارنة بين الروايتين:

١- فى الرواية الأولى يقول ﷺ "كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" وفى الثانية "على قصعتها"، فما الفارق وما العلة؟

إن "إلى" للانتهاء و"على" للاستعلاء، و"إلى" تضمر رحلة الأعداء من الاستعداد والهجوم الإعلامى لتجهيز العالم لقبول الانقضاض على أمة الإسلام؛ فكأنها تحكى ما حدث بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر من استعداد أمريكا والعالم للانقضاض على الإسلام والمسلمين خاصة العراق، وما قاله "بوش الابن" أدل شىء على ذلك فقد قال سأعيدها حربًا صليبية جزعة ومن ليس معى فهو ضدى، فى هذا التوقيت من الإعداد للقدوم على بلاد المسلمين فهى تمثل مرحلة متقدمة فالعدو مازال فى بلده يستعد ويعد الدنيا لمشاركته فى حرب الإسلام، أما "على" فكأنها تحكى مرحلة متأخرة من الحرب والعداوة الواضحة التى تحولت من تجييش الجيوش والحرب الإعلامية والإعداد بكل صوره إلى مرحلة الفعل ودخول بلاد المسلمين، وأكل الأخضر واليابس، وسرقة أموال

المسلمين كبترول العراق والخليج، و"على" تدل على أنهم دخلوا بلادنا واختلفوا على تقسيم ثرواتنا، وتلك مرحلة أتت بعد لما اختلفوا على إعمار العراق وعلى بترول العراق، وأكلوا بترول الخليج وثروات الخليج الذى أصبح يعمل لصالح أمريكا وعائدات بتروله لصالح أمريكا، وهناك مثال للتوضيح: لو أنك مع ضيف لك دعوته للإفطار فى رمضان ثم أذن المغرب فصليتما فى المسجد ثم قلت له بعد الصلاة هيا بنا إلى الطعام ورحلتما إلى المنزل ووضع الطعام فقلت له أنزل على الطعام، فـ"إلى" والعدو فى الخارج يعد ويجهز ويجيش، و"على" العدو دخل وعاث فى الأرض فسادًا وأكل خير البلاد وأذل العباد.

٢-فى الرواية الأولى قال النبى ﷺ "فقال قائل ومن قلة" وفى الثانية "قلنا"، الرواية الأولى الفاء دلت على السرعة دليلاً على التعجب والمفاجأة بالكلام وشدة التأثر به وسرعة البحث عن سببه –كما بينت فى التحليل اللغوى- ، وفى الثانية "قلنا" دليل على أن الخبر أكل عقول الصحابة جميعًا وخافوا منه جميعًا وأحزنهم جميعًا وفاجأهم جميعًا وقلقوا على مستقبل الأمة جميعًا؛ وذلك لأن الرواية الثانية كأنها تتحدث عن حالة أشد فى الضعف والوهن للأمة وحالة أشد فى الضغن من الأعداء علينا فناسبها "قلنا" أى أن الكل تعجب وقلق على مستقبل الأمة، وفيه حب الصحابة لنا ولمن يأتى من بعدهم وحبهم للراية التى حملوها وقلقهم عليها ولو بعد وفاتهم.

٣-الرواية الثانية فيها زيادة "من كل أفق" وهذا يناسب الرواية التى تكاد تتحدث عن مرحلة أشد كما بينت سابقًا، فالناس أتوا إلينا من كل بقاع الأرض كما يحدث الآن فى العراق والشام من راية صليبية جمعت الكل تحتها لحرب بلادنا وإخواننا ونهب ثرواتنا، والمصيبة أننا فى هذا التوقيت نتآكل فيما بيننا لا نتكامل والفرقة عنوان لنا مما طمع أعداءنا.

٤-فى الرواية الأولى قال ﷺ "ولكنكم غثاء كغثاء السيل" وفى الثانية قال "ولكن تكونون كغثاء السيل" فتكرر الغثاء مرتين فى الأولى دون الثانية، بل أتى "غثاء" خبرًا لـ "لكن" وأتى "كغثاء السيل" بيانًا وتوضيحًا له، فتم المعنى عند قوله "ولكنكم غثاء"، وكغثاء السيل أتى تشبيهًا موضحًا لنوع الغثاء فهو غثاء السيل، وفيه من الدلالة على الكثرة ما فيه لأنه من الكثرة بحيث لا يعد، وفى الرواية الثانية قال "تكونون كغثاء السيل" فجعل الضمير الدال على الأمة اسمًا لكان وجعل "كغثاء السيل" خبرًا لها.

٥-فى الرواية الأولى قال ﷺ "ولينزعن الله"، وفى الثانية قال "ينتزع" فالأولى فيها مؤكدات واضحة ، بينما فى الثانية خلت من التأكيد، وكأن ذلك يدل على أن الرواية الأولى تمثل مرحلة أولى بمثابة الصدمة للصحابة فكان لابد من المؤكدات، أما فى الثانية فلم يحتج الأمر لذلك لسابق الحديث عنه.

٦-فى الرواية الأولى قال ﷺ "من صدور عدوكم"، وفى الثانية قال "من قلوب عدوكم" فى الأولى عبر بالصدور والمعنى أن الخوف منكم كان يملأ قلوب

أعدائكم بل كان الأعداء قديمًا أيام عزة الإسلام وأيام كان الجهاد عنوانًا لهم كان الخوف يملأ قلوبهم بل الخوف ملأ القلوب وطفح وملأ الصدور من كثرته لأن الصدور أوعية للقلوب، ففى الرواية الأولى التى يتحدث عن مرحة أولى أقل فى ضعف الأمة وهوانها كانت هناك بقايا من خوف معتمدة على التاريخ أما فى الرواية الثانية فعبر بالقلوب دون الصدور فى إشارة واضحة إلى حالة من الخوف القليل، فالخوف فى القلوب فقط وما ملأ الصدور بعد القلوب فهو خوف ضئيل سيتحول إلى جرأة بعد قليل مما يناسب رواية فيها قوله "من كل أفق"، وقوله "كما تداعى الأكلة على قصعتها" التى تدل على دخولهم بلادنا واختلافهم على اقتسام خيراتنا فتلك يناسبها القلوب فقط دون الصدور فالصدور كما فى القرآن تذكر للدلالة على شدة الامتلاء كما فى قوله تعالى ﴿**قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾[آل عمران: ١١٨] فملأت الصدور ثم طفحت فظهرت على فلتات اللسان، والأمر هنا يقتضى هذا لأنه يتحدث عن مهابة نزعت مرة من الصدور، ومرة نزعت من القلوب والعلة كما بينت سابقًا، ويضاف لذلك أنه مع "إلى" التى تضمر رحلة الأعداء أتى بالصدور إشارة إلى أن بقايا الخوف كانت موجودة وهم فى بلادهم ويجهزون لنا، ولكن لما دخلوا البلاد ولم يروا استعدادًا منا ولا مقاومة لم يكن هناك هذا الخوف ولا حتى بقاياه لأنها نزعت.

٧-فى الرواية الأولى قال ﷺ "ليقذفن الله فى قلوبكم الوهن" وفى الثانية قال "يجعل فى قلوبكم الوهن"، وقد بينت عند الدراسة التحليلية الفرق بين القذف

والجعل وبينت الشدة فى القذف والمؤكدات وهو يقابل النزع وهو سلب وسحب بشدة وبينهما طباق كما هو بين، وفى الثانية قال يجعل ليناسب الفعل الذى خلا من المؤكدات ففى الأولى "ولينزعن الله " وفى الثانية ينتزع بلا مؤكدات.

٨-فى الرواية الأولى بعدما قال "وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن" قال "فقال قائل"، وفى الثانية قال "قلنا وما الوهن"، فى الأولى أدت الفاء دورها بدلالتها على التعقيب والسرعة؛ فالصحابة متلهفون لمعرفة ما الذى يوصلنا إلى هذا وما تفسيره هل سنصل لحالة من الضعف تغرى عدونا كما ذكرت يا رسول الله ﷺ، ثم ما هذا الوهن الذى سيجعل الدنيا تتجمع علينا دون أدنى درجات الهيبة لنا، وفى الثانية حل محل الفاء التعبير بصيغة الجمع وفيه إشارة أكثر مبالغة أى أن الأمر شد انتباه الصحابة جميعًا واستفزهم جميعًا، والكل متفق على الرغبة السريعة فى معرفة العلة والداء وما توصيف هذا الداء، وفيه فضيلة للصحابة من أنهم جميعًا على قلب رجل واحد كلهم خائف على الأمة فكلهم يحمل هم الراية التى حملها ويتمنى لها دوام الرفعة ولو بعد وفاته، وفيه أن النبى ﷺ يتحدث إلى الأمة فى زمنها الجميل زمن الصفوة عن مرحلة من مراحل الأمة وكأن الأجيال كلها عبر تاريخ الأمة شئ واحد متقدم ومتأخر يحمل هم الكل، وكذلك الصحابة تعلموا هذا الأدب منه فصاروا يحملون الهم العام هم أمة الإسلام عبر تاريخها.

٩-فى الرواية الأولى فى تعريف الوهن قال ﷺ "حب الدنيا وكراهية الموت" بينما فى الرواية الثانية قال "حب الحياة وكراهية الموت"، وهذا فيه من البلاغة ما يجعلنا

نقترب من القول بأن كل رواية تكاد تتحدث عن مرحلة من مراحل الضعف، بل من قمة البلاغة أن الرواية التى قالت حب الدنيا أى شهواتها وملذاتها هى الرواية التى فيها "كما تداعى الأكلة إلى قصعتها"، و"إلى" التى تضمر رحلة الأعداء إلى بلادنا، فهم ما دخلوا بلادنا بل ما زالوا فى مرحلة الحرب الإعلامية والإعداد لدخول بلادنا إنهم يجيشون الجيوش لحربنا أى مازالوا هناك فى بلادهم أعلنوا العداوة ما الذى شغلنا عن الاستعداد؟ الإجابة حب الدنيا بشهواتها وملذاتها انشغلنا بالنساء والأملاك والضيعات بل انشغلنا بالمعاصى ولم نقتصر من الدنيا على الحلال، لكن فى الرواية الثانية العدو دخل بلادنا وسفك دماء إخواننا واستباح أعراض أخواتنا، ما الذى جعلنا لا نقاومه ولا ندفعه ولا نجاهده إنه حب الحياة، لأنه فى هذه الحالة لا شهوات ولا ملذات ولا دنيا، لقد بدأت حياة الذلة والمهانة ومع ذلك انشغلنا، وكأنه فى الأولى جاء العدو وقيل لك استعد فقلت دعنى استمتع بالحياة لا وقت للجهاد فى حياتى ولا قدرة لى عليه، فمنظر الدماء يخيفنى، وفى الثانية يقال لك قاوم فتقول دعنى أعيش أريد أن أحيا، ورحم الله ﷻ من قال:

إذا غامرت فى أمر مروم ∴ فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت فى أمر حقير ∴ كطعم الموت فى أمر عظيم

لله درك يا متنبى أين الأمة من هذا الكلام، نعم بدأنا ندخل فى المرحلة الأخيرة ونرى الوهن ملأ قلوب المسلمين إلا من رحم ربى كما تدل عليه الرواية الثانية،

وأخيرًا بعد الدراسة والتحليل والمقارنة بين الروايتين، لا أستطيع أن أجزم أنهما روايتان فالدراسة الحديثية التأريخية ليست متوافرة، بل الأقرب إلى الدراسة الحديثية أنه حديث واحد وذلك لأن الراوى واحد، لكن هل من الممكن أن يكون الرسول ﷺ قال الحديث مرتين متحدثاعن مرحلتين، وأن الصحابى الجليل ثوبان سمعه فى المرتين فنقله بالروايتين قد يكون لكنه للأمانة العلمية بعيد جدًا، لكن بالدراسة التحليلية والمقارنة بين الروايات أكاد أجزم أن هذا التطابق البلاغى فى الرواية الوحيدة مع اختلافات كثيرة بين الروايتين يصعب أن تكون تلك البلاغة العظيمة المعبرة من تصرف الرواة لكن لا أستطيع الجزم، ويكفينى أننى وضعت بين يدى القارئ الاختلافات ومدلولها البلاغى وأثرها على المعنى، لألفت إلى باب جديد من الدراسة لعل الله ﷻ يوفقنى إلى إكمال المسير فيه – والله أعلم-.

الحديث الثانى

روى الإمام ابن ماجة فى سننه فى كتاب الفتن باب شدة الزمان قال: حدثنا أبوبكر ابن أبى شيبة حدثنا يزيد بن هارون حدثنا عبد الملك بن قدامة الجمحى عن إسحاق بن أبى الفرات عن المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "سَيَأْتِى عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ قِيلَ وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ قَالَ الرَّجُلُ التَّافِهُ فِى أَمْرِ العَامَّةِ".

كما روى الإمام أحمد فى مسنده قال: حدثنا عبد الله حدثنا أبى حدثنا يونس وفليح قال عن سعيد بن عبيد عن سباق عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ "قَبْلَ السَّاعَةِ سُنُونَ خَدَّاعَةٌ يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ وَيُصَدَّقُ فِيهَا الكَاذِبُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الخَائِنُ وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ" وعلق شعيب الأرناؤو ط وقال إسناده حسن.

وفى رواية عند أحمد برقم ٧٩١٢ "الرُّوَيْبِضَةُ السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِى أَمْرِ العَامَّةِ".

وفى المستدرك وعند أحمد "الفُوَيْسِقُ يَلِى أَمْرَ العَامَّةِ أَو فِى أَمْرِ العَامَّةِ"

– وصححه الحاكم بإسناده وكذا أحمد[1]–.

(١) ينظر سنن ابن ماجة جـ٢ ص١٣٣٩، كما ينظر مسند أحمد ت العلامة أحمد محمد شاكر ط دار الحديث برقم ٧٩١٢، كما ينظر مسند أحمد، ت شعيب الأرناؤوط، ط الرسالة جـ١٣ص٢٩١ كما ينظر المستدرك جـ٤ ص٩٢ ط إلكترونية مصورة من تركيا

أولًا: الدراسة التحليلة:

قال رسول الله ﷺ "سيأتى على الناس سنوات خداعات": يأتى فعل مضارع ودخول السين عليه تُمحِّضُه للاستقبال لكن هذا المستقبل قريب مع السين بعيد مع سوف، فلماذا عبر النبى ﷺ بالسين التى تدل على القرب الزمنى؟ وإن كان الواضح من الروايات أن هذا سيكون فى آخر الزمان، بل ذكر النبى ﷺ شرورًا ومصائب فى الحديث مُحَالٌ أن يراها الصحابة أو السلف الذين هم القرون التى تحمل الخير للأمة عبر تاريخها قرون الخيرية بشهادة رسول الله ﷺ، لعل ذلك تربويا من باب الإلهاب والتهييج والحث على الاستعداد أو التشويق لما سيأتى بعدُ ليحذر منه، ولعل ذلك لبيان أن الأمة الإسلامية عبر تاريخها شئ واحد فما يؤلم الآخرين يؤلم الأولين، والصحابة الذين هم حملة الراية الآن يؤلمهم ما سيحدث للراية من بعدهم كما بينت فى الفصل السابق.

والتعبير بـ"على" بدلالتها على الاستعلاء يشعر بعلوية المصائب وكأنه يتحدث عن مصائب تتنزل عليهم لذلك نجد (اللام) تأتى فى الخير و"على" فى الشر، فالمصائب تتنزل من علو، ولأن "على" تأتى فيما عليك و(اللام) تأتى فيما لك كما فى قوله تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله "الناس" تدل على عموم هذه المصائب والبلايا فلم يقل على المسلمين، فى إشارة إلى أن الأزمة ستشمل الأرض ومن عليها، أو لأن الناس ساعتها سيكون الإيمان فى قلوبهم ضئيلًا وإن بقيت له بقية إلا أنهم لا يستحقون وصف الإيمان، أو لأن كلمة "الناس" من النَّوسِ بمعنى الاضطراب كما فى حديث الصحيحين حديث أم زرع "وأناس من حُلِى أذنى"، وأختاره لدلالته على

الاضطراب لأنه يتحدث عن اضطراب فى الأخلاق والسلوك بل والفِطَر التى ستنتكس.

"سنوات خداعات" أى أزمنة وأجيال ستحيا هذه المصائب والفظائع، ونسبة الخداع إلى السنوات مجاز عقلى؛ لأن السنوات زمن لهذا الذى سيحدث وليس الخداع فيها ولا منها إنما هى زمن فقط، وعلة هذا المجاز شمولية الخداع لكل الزمن فستحيا أجيال وسترى هذا الذى سيذْكر بعد، ولن يخلو منه جيل ولا جماعة، بل سيكون الأمر عامًا يعم الزمان كله والناس كلهم إلا من عصمه الله ﷻ، والخداع (إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبْدِيه على خلاف ما يخفيه قال تعالى ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة: ٩]، وطريق خادع وخيدع مُضِل كأنه يخدع سالكه، والمخدع بيت فى بيت كأن بانيه جعله خادعًا لمن رام تناول ما فيه، وجذع الريق إذ قَلَّ مُتصورًا منه هذا المعنى)[١]، والخداع المكر والحيلة، ونسبته للسنوات مجاز كما سبق والمراد أن الخداع سيكون عنوانًا لأهل هذا الزمان، وقيل فى معنى سنوات خداعات أى سنوات يكثر فيها الإطماع ويقل الريع فهذا خداعها تُطْمِعهم فى الخصب بالمطر ثم تُخلف ويكون الجدب وقيل الخدعة قليلة المطر[٢]، هذا كله على بيان المعنى اللغوى وأصله، والصواب أن يكون تفسير السنوات الخداعات بما سيأتى فى الحديث من تصديق الكاذب وتكذيب الصادق إلى آخر الحديث؛ فأرى أن الآتى بعد بيان لمعنى خداعها مثل قوله تعالى﴿ إِنَّ

(١) المفردات ص١٤٣

(٢) ينظر التعليق على سنن ابن ماجة جـ٢ ص١٣٣٩

﴿ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١] فقد فسر الهلع بما بعده.

"يصدَّق فيها الكاذب ويكـذَّب فيهـا الصـادق": يصـدق فيهـا الكـاذب المعنى واضح فى بيان انقـلاب الأمـور إلى الضـد، واخـتلاف الحـوار بعـد تحـول الأمور واختلال الفطر وغياب الشرع وضياع الخُلُق، لكن الملاحظ هو أن الفعـل مبنى للمجهول حُذف الفاعل للعموم أى أن هذا سـيكون خلـق ومنطـق عمـوم الناس، وقال "الكاذب" ولم يقل الذى يكذب، وعبِّر بالاسم دلالة عـلى الرسـوخ والثبات والاشتهار بالكذب فالذى شُهر وعُرِف بالكذب فأصبح الكذب عنوانًـا له حتى أصبح أغلب أوصافه، بل وصل إلى حد أن أصـبح اسـمًا لـه فيقـال لـه يـا كاذب ويقال حضر الكاذب، مَنْ هذا حاله سيصدَّق، لن يصدق مـن كـذب مـرة لغياب الفطنة من الناس ولن يكون هذا أمرًا عارضًا لعلة فى رجـل أو جماعـة مـن الناس بل الكاذب الذى عنوانه الكذب سيصدَّق، ويبنى الفعـل للمجهـول ثانيـة لبيان أن الكل سيصـدقه وسـيقدمه مـع أن الكـذب عنوانـه، وإذا كـان الكـاذب يصدق فما حال الصـادق سيصـدق أيضًـا فيمـدح الاثنـان معًـا نفاقًـا أو خوفًـا؟ الإجابة لا، لن يصدق الكاذب والصادق، إنما سيصدق الكاذب، والصادق الذى عنوانه الصدق فهو الصدوق الدال على الصدق العامل به هـذا سـيكذَّب، ويبنـى الفعل للمجهول ويحذف الفاعل للعموم أى أن الكل سيكذبهُ -كما مر فى الجملـة السابقة- إن هذا التعبير معناه أن الأمور ستسير فى عكس الاتجـاه بـل سـتوغل فى أبواب الشر وسنصـل إلى أقصى- مـدى فى حـرب الفضـيلة وإشـاعة الرذيلـة، إن

الصدق سيصبح سوأة والكذب سيصبح للناس مطلبًا فبه يُسْمَعون وبه يترأسون وبه يتقدمون وبه يقودون وإنا لله وإنا إليه راجعون.

"ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين": هذا من تمامية الشر في هذه الأزمان سيكذب الصادق ويصدق الكاذب هذا في باب اللسان وباب الحوار، فما الحال في المعاملات ستنتشر خيانة الأمانة ليس هذا فحسب، لن تنتشر الخيانة فقط، بل الخائن سيؤتمن ويقدم ويولى لخيانته، والتعبير بالمبنى للمجهول وحذف الفاعل للعموم وللدلالة على أن الخائن الكل سيأتمنه ويقدمه، ولم يقل من خان وإنما الخائن اسم فاعل فالخيانة ملازمة له ثابُت هو عليها لا تفارقه في أي معاملة، لم يكن أمينًا مرة، بل هوالخائن أبدًا في كل معاملاته عنوانه الخيانة هذا سيؤتمن ومن الكل، والأمين الثابت الراسخ على الأمانة التي هي عنوان له سيُخَوَّن من سَيُخَوِّنه؟ الكل المجتمع بأسره، إن الدنيا بأسرها ستتحول إلى النقيض، وليس المعنى انتشار الفساد وفقط وتقديم أهل الشر فقط، إنما المعنى حرب أهل الحق فالصادق مُكَذَّب محارَب والأمين مُخَوَّن محارَب، هذان المعنيان سيكونان من الوضوح بمكان، ولن يكتفي أهل الشر بنشره بل سيضيفون إليه حرب الحق وأهله.

هل هذا الزمان بعيد عنا أم اقترب أم نحن نحياه الآن؟ الإجابة معلومة للكل؛ إننا نرى هذا في كل مكان ولا تعليق ولا تمثيل فالأمر واضح لكل ذي عينين.

"وينطق فيها الرويبضة": والرويبضة مِنْ رَبَضَ فهو رابض اسم فاعل والتاء للمبالغة، وهو العاجز عن معالى الأمور القاعد عن طلب الخير[1]هذا معنى رابض فإن أضفت إليه التصغير فهو فى باب الحقارة والندالة صغير حقير فهو أحقر من الحقارة، فقد جمع النبى ﷺ فى وصفه بين التفاهة والقعود عن كل خير وجمع إلى ذلك التصغير فهو فى هذا الباب صغير فهو فاشل لكنه صغير فى باب الفشل فلا يحسن شيئًا، والتعبير بـ"فيها" والضمير يعود على السنين وفى للظرفيه والمقصود الأحداث التى ستحدث فى هذه السنين، ولكن الظرفية أفادت بلاغيا أنه سيكون منغمسًا فى أمور العامة لأنه كاذب خائن رابض تافه وسيكون فى هذا الزمان أمثال هؤلاء رؤساء قيادات للأمم لدرجة أنه سيكون منغمسًا فى كل أمر عام.

ولن نتعب أنفسنا فى بيان معنى الرويبضة فإن النبى ﷺ أراحنا وعرَّفه بقوله "الرجل التافه فى أمر العامة"لكن قبل هذه الجملة كان هناك سؤال "قيل وما الرويبضة" والتعبير بـ"قيل" بنى للمجهول وحذف الفاعل لبيان أن الفاعل ليس مرادًا ذكره، ولبيان أن الأمر غريب على الكل وكأنه يستثير الكل ويحرك الكل بالسؤال، والتعبير بـ"ما" دون "من"، و"ما" يسأل بها عن الذات غير العاقلة كما أن "من" يسأل بها عن الذات العاقلة فلماذا لم يقل "من" وهى الأليق هنا؟ قالوا إن هذا يحدث كثيرًا فتتبادل الكلمتان مواضعهما فتأتى "ما" موضع "من" و"من" موضع "ما" ولكن لابد من علة بلاغية، فما هى؟ هل هى لأنه كما تكلم عن الصفات السابقة ثم ختمها بالحديث عن الرويبضة الذى هو تافه ومع

(١) ينظر النهاية نقلًا عن ابن ماجة جـ٢ ص١٣٣٩

تفاهته يتكلم ويلى أمر العامة عبر بـ"ما" التى لغير العاقل لبيان أنه كأنه أقرب إلى البهائم –أعزكم الله– ولا يستحق وصف إنسان فالإنسانية منه فرَّت، فهو خلو من كل مكرمة جُمِعَتْ فيه الشرور ومع ذلك يتكلم فى أمر العامة فهو كالحيوان الذى يضع رأسه فى طعام غيره اعتداءً عليه، أو هو أقرب إلى الجمادات فلا تقع منه أى حركة مفيدة لحياة البشر ـ لذا استحق أن يعبَّر عنه بـ"ما" دون "من".

عرف النبى ﷺ الرويبضة بقوله الرجل التافه فى أمر العامة فتلك مصيبة عظيمة أن يترأس التوافه وتجدهم فى كل حَالِكَةٍ ومُلِمَّةٍ مُقَدَّمين، بل ستجدهم منغمسين فى معضلات الأمور حديثًا عن المشكلة التى تعرض للأمة وأسبابها وكيفية حلها، كيف يا أمة الإسلام سيحدث فيك هذا بل كيف يا أهل الأرض سيحدث هذا؟ أين العقول حينئذ؟ ما الذى سيحدث؟ إن الحبيب ﷺ أخبر أن هذا من علامات قرب الساعة فلا تتعجب ستجد الراقصة أُمَّاً مثالية وأهل العُرْى والإباحية والحرب على دين الله ﷻ يهاجمون الأزهر ويتهمونه بالجمود والحرب على العقل، وسيحاربونه حرب وجود، وستجد الأزهر ورجاله يتراجعون لأن الزمن زمن التوافه وقد انقلبت فيه المعايير عَقِبًا على رأس، وتبدلت الأمور إلى الضد وأصبح هؤلاء التوافه نجومًا يهتدى بهم قال ربنا ﴿**وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ**﴾[النحل: ١٦] سيجعلون هؤلاء نجومًا يقتدى بها المغنى والممثل واللاعب ومن دار فى فلكهم، وسيُلعب فى قدوة المسلمين، ونحن قدوتنا رسول الله ﷺ كما قال ربنا ﴿**لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١]، فاللهم ارزقنا الاقتداء به وعافنا من هذه الأزمان وبلاياها.

ثانيا: المقارنة بين الروايات:

١-فى الرواية الأولى يقول النبى ﷺ "سيأتى على الناس"، وفى الرواية الثانيه يقول ﷺ "قبل الساعة" فما علة هذا الاختلاف؟إن السين تقرب الفعل للسامع، وقوله قبل الساعة قمة البعد فما علة ذلك؟ الإجابة أن النبى ﷺ فى الرواية الأولى يحذِّر الصحابة والأمة من بعدهم استعداداً لهذا وتربية لأبنائهم على الاستعداد لهذا كما يحذر من الدجال ويقَرِّبُ لهم من زمنه حتى قال أحدهم تخيلنا أنه يخرج علينا الآن، وهذا معنى تربوى مهم تُربَّى على مثله الأمم العظيمة، أما فى الرواية الثانية فإنه يخبر على الأصل أن هذا قريبًا من الساعة كما يذكر الدَّجَّال من علامات الساعة ومع ذلك يحذِّرهم منه ويقول إن خرج الآن فأنا حجيجه.

٢-فى الرواية الأولى قالﷺ "سنوات خداعات"، وفى الثانية قال ﷺ "سنون خداعة" والخلاف بين الروايتين فى الجمع ونوعه هل هو قلة أم كثرة؟ فمرة يعبر بصيغة تدل على الكثرة ومرة تدل على القلة، وفى كل سياق وفى كل رواية يختارالأنسب لها ففى التعبير بالسين التى تدل على القرب وأن الأمر تربوى تحذيرى اختار القلة، وفى الحديث عن علامات الساعة وبيان أن هذا فى آخر الزمان اختار الكثرة ليدل عى انتشار تلك السوءات والمصائب قُبيل الساعة.

٣- فى الرواية الأولى قال ﷺ "يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق"، وقال فى الرواية الثانية ﷺ "يكذب فيها الصادق ويصَدَّق فيها الكاذب" ففى الأولى قدم تصديق الكاذب وفى الثانية قدم تكذيب الصادق، وهذا وذاك سيحدث فى زمن واحد، لكن التقديم فى الأولى لتصديق الكاذب ليدل على أن أهل الضلال سيبدأون بتقديم الشر وأنهم سيقدمون الكذابين والخائنين

ليقودوا الناس أجمعين، وفى الثانية قدم تكذيب الصادق ليدل على أن أهل الشر سيبدأون بحرب الحق وأهله قبل تقديم الشر وأهله، وتلك مناهج مختلفة فى بسط الباطل فى الأرض يختار منها أهل الشر الأنسب لهم فى زمانهم، وهذا فى زماننا هناك من يبدأ بتلميع أهل الضلال، وهناك من يبدأ بالإساءة لأهل الحق وتشويه صورتهم عند الناس ولكل من أهل الشر وجهته واختياره.

٤-فى الرواية الأولى قال ﷺ "ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين "، بينما فى الثانية "يخون فيها الأمين ويؤتمن فيها الخائن" ويقال فى علة ذلك ما قيل فى سابقه ولا حاجة للتكرار.

٥-فى الرواية الأولى عرف الرويبضة بأنه الرجل التافه، وفى الثانيه "السفيه"، وفى أخرى "الفويسِق" فما علة ذلك؟ إن كل لفظه عبر بها فى رواية تدل على مرحلة من مراحل استعلاء الشر وكثرته، ولبيان ذلك تعرف معانى الألفاظ، أما التافه فقد مر أثناء الدراسة التحليلية، وأما السفيه فمن السفه وهو (خفة فى البدن ومنه قيل زمام سفيه كثير الاضطراب وثوب سفيه ردئ النسج، واستعمل فى خفة النفس لنقصان العقل وفى الأمور الدنيوية والأخروية قال فى السفه الدنيوى ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾[النساء: ٥]، وقال فى الأخروى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن:٤] فهذا من السفه فى الدين)[1]فالسفه خفة العقل، وفى زمن انقلاب الأمور عقبًا على رأس قيل هذا سيتكلم فى أمر العامة فقد جمع إلى التفاهة خفة العقل، وفى زمن اللاعقل قيل هذا ينغمس فى حل مشاكل الناس، ويُسْمع له ويُقتدى به، وتلك مرحلة أسوأ من

(١) المفردات ص٢٣٤

مرحلة التافه الذى يتكلم فى أمور العامة، أما الرواية الأخيرة وفيها "فويسق" فإنها تصغير فاسق وهو من الفسق (يقال فسق فلان خرج عن حجر الشرع، وذلك من قولهم فسق الرطب إذا خرج عن قشره، وهو أعم من الكفر، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، ولكن تعورف فيما كان كثيرًا، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقرَّ به ثم أخل بجميع أحكامه أو بعضه، وإذا قيل للكافر الأصلى فاسق فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة قال ﴿ **إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ** ﴾[الكهف: ٥٠](١)لقربان معنى الفاسق وهو الخارج عن أحكام الله ﷻ، والمعنى يضاف لسابقيه فهو مرحلة فوق التافه وفوق السفيه؛ فمع خفة العقل ضعف دين إن لم يكن انعدامه، ثم انتبه للتصغير فى قوله ﷺ "فويسق" فهو حتى فى الشر والمعصية حقير صغير لا يؤْبه به ولا يُلْتفت إليه، لكن هذا الزمان سيقدِّم هؤلاء، بل سيكونون قادة وللناس سادة أى روادًا يشار إليهم بالبنان قدوات لكل بنى الإنسان، والفاسق هذا سيترأس فى كل الأمور حتى أمر الدين، بل ستجده بين الدعاة إلى الدين ممن باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، فمنهم توافه وسفهاء لأن السفيه خفيف العقل ولا يبيع آخرته بدنيا غيره إلا خفيف العقل، ثم إنهم من الفسق بمكان لأنهم خرجوا عن دائرة الشرع فبدلًا من أن يدلوا الناس على طريق الله ﷻ سيصدونهم عن طريق الله ﷻ فبدلًا من حض الناس على الجهاد تحريرًا للأقصى واستنقاذًا له من أيدى اليهود الملاعين الذين يدنسونه صباح مساء، بل ويجهزون لهدمه لبناء هيكلهم المزعوم بدلًا من حض الناس قادة ومقودين على الجهاد سيصدون الناس عن الجهاد وسيخرج

(١) المفردات ص٣٨٠

علينا منسوب للأزهر منسوب للعلم الشرعى منسوب للفقه، والفقه والعلم والدين منه براء، سيخرج علينا هذا متحدثًا عن حرمة دم المسلم وأنه لا يجوز أن نريق الدماء من أجل مجموعة من الأحجار، نعم هو بيت الله الثانى فى الأرض بعد المسجد الحرام، لكن حرمة دم المسلمين أشد وللبيت رب يحميه، أرأيت كيف يباع الدين وبلا ثمن، نعم إنه زمن الرويبضة والسفيه والفويسق يتكلم فى أمر العامة، حتى ولو كان هذا الأمر هو دين الله ﷻ، أرأيت كيف كان اختلاف الروايات دليلًا على اختلاف المراحل والأحوال فى كل مرحلة، و نبينا ﷺ الذى حدثنا هذا الحديث كأنه بيننا ويوصِّف حالنا فهذا من دلائل نبوته.

الحديث الثالث

روى الإمام ابن ماجة فى سننه كتاب اتباع سنة رسول الله ﷺ باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه قال:

حدثنا أبوبكر بن أبى شيبة حدثنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح حدثنا الحسن بن جابر عن المقدام بن معد يكرب الكلابى قال: قال رسول الله ﷺ "يُوْشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيْكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِى فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله ﷻ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ الله"(١).

وروى الإمام أبو داود فى سننه فى كتاب السنة، باب فى لزوم السنة قال: حدثنا عبد الوهاب بن نجدة حدثنا أبوعمرو بن كثير بن دينار عن حُريز بن عثمان عن عبد الرحمان بن أبى عوف عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أَلَا إِنِّى أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيُوْشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا القُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الحِمَارِ الأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِىَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ"(٢).

---

(١) ينظر سنن ابن ماجة كتاب اتباع سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تعظيم حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والتغليظ على من عارضه جـ١ ص٦ ط دار الحديث، ت محمد فؤاد عبد الباقى برقم١٢

(٢) ينظر سنن أبى داوود كتاب السنة باب فى لزوم السنة جـ٤ ص١٩٩ برقم٤٦٠٤

وروى الإمام الترمذى فى سننه من حديث المقدام أيضًا أنه ﷺ قال: "أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّى وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله ﷻ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله ﷺ كَمَا حَرَّمَهُ اللهُ".(١)

وروى الإمام أحمد فى مسنده من حديث المقدام أيضًا أنه ﷺ قال: "أَلَا إِنِّى أُوْتِيْتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا يُوْشِكُ رَجُلٌ يَتَثَنَّى شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِالقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الحِمَارِ الأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، وَلَا لُقَطَةٌ مِنْ مَالِ مُعَاهِدٍ".(٢)

وفى رواية ثانية فى المسند يقول الإمام قال رسول الله ﷺ: "يُوْشِكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُكَذِّبَنِى وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِى فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسِتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ".(٣)

وروى ابن ماجة فى سننه قال حدثنا نصر بن على الجهضمى حدثنا سفيان بن عيينة فى بيته أنا سألته عن سالم أبى النضر، ثم مرَّ فى الحديث قال: أو زيد بن أسلم عن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه أنه ﷺ قال: "لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِى مَا وَجَدْنَا فِى كِتَابِ الله اتَّبَعْنَاهُ".(٤)

---

(١) رواه الترمذى فى سننه برقم٢٦٠٧، ٢٦٦٤

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث المقدام برقم١٦٧٤٣، ١٦٨٤٤ ط إلكترونية مصورة

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث المقدام برقم١٦٧٤٣، ١٦٨٤٤ ط إلكترونية مصورة

(٤) سنن ابن ماجة نفس الكتاب والباب السابق جـ١ ص٦، ص٧ ت محمد فؤاد وعبد الباقى برقم١٣

أولًا: الدراسة التحليلية:

قبل البدْء فى الدراسة التحليلية لابد أن أبَين أن هذا الحديث يعالج قضية خطيرة ألا وهى الطعن على السنة وادعاء الاكتفاء بالقرآن استدلالًا بظواهر بعض الآيات وجهلًا بمعانيها الحقيقية من مثل قوله تعالى ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾[الأنعام: ٣٨]، وقوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[النحل:٨٩]، ففى هذا الحديث يحذر الرسول ﷺ من هذا الفكر السئ الذى بدأ بجهل وحسن طوية، وبعد ذلك بدأ يتحول الجهل وحسن الطوية إلى سوء طوية؛ فأعلن الحرب على السنة ابتداءً وهو يريد الوصول لطمس الدين كله انتهاءً، وبدأت هذه المدرسة تستدل بما سبق من كفاية القرآن وتضيف أن الله ﷻ تكفل بحفظه ولم يتكفَّل بحفظ السنة، وأن السنة حفظها الرجال ولم يحفظها الكبير المتعال، وأن السنة تأخر تدوينها بعد مائة عام أو يزيد أما القرآن فجُمع ودُوِّن بعد وفاة النبى ﷺ مباشرة، وهؤلاء إن سَلِمَتْ نيتهم وتوجهوا للقرآن الذى يدَّعون الاكتفاء به صادقين لهداهم الله ﷻ إلى الحق، ولكن البصيرة قد عميت والأبصار قد كلَّت، والرد على هؤلاء بإيجاز سريع يكون ببلاغة قرآنية منقطعة النظير، فانظر على سبيل المثال لقولهم إن الله ﷻ تكفل بحفظ القرآن دون السنة تجد الآية التى استدلوا بها ترد عليهم إن عقلوا، واقرأ قول الله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩]، تجد أن الآية تخبر أن الله ﷻ حفظ الذكر الذى نزل من السماء، والسنة نزلت من السماء كالقرآن بدليل قوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، والحكمة هى السنة بالإجماع والسنة تُتلى كالقرآن وهى ذِكْر يُتلي كالقرآن بدليل قوله تعالى﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى

﴿ بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، فقد أنزل الله ﷻ على نبيه وحيين هما الكتاب والسنة حيث قال تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم: ٣، ٤]، لذلك كانت الآية فى قمة البلاغة والدقة لما قالت "**إنا نحن نزلنا الذكر**" وعبَّرت بالذكر دون القرآن لأن الذكر كما بينت يشمل القرآن والسنة، والقرآن نفسه يشهد للسنة أنها بيان للقرآن فى قوله ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[النحل: ٤٤]، وأمرت الآيات بطاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ فى قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[النساء: ٥٩] والملاحظ أن الآية أعادت (الفعل إعلامًا بأن طاعة الرسول تجب استقلالًامن غير عرضْ ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقًا سواء كان ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتى الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالًا بل حذف الفعل إيذانًا بأنهم إنما يطاعون تبعًا لطاعة الله ورسوله فمن أمر منهم بخلاف ما جاء به الرسول ﷺ فلاسمع ولا طاعة)[1]، ومن نافلة القول الاستدلال بقول الله تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[الحشر: ٧]، وقوله ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[آل عمران: ٣١]، فمن أراد الاكتفاء بالقرآن نقول له كيف تُنَفِّذ أمر الله ﷻ فى هذه الآيات، بل من أين علمت بمواقيت الصلاة وأعداد الركعات وتفاصيل الزكاة ودقائق البيوع إلى آخر ما بينه القرآن إجمالًا وبينته السنة تفصيلًا، وأما تدوين السنة فإنه تأخر لنهى النبى ﷺ عن كتابة السنة خوفًا من اختلاطها بالقرآن فلما استقر القرآن وحفظ،

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم جـ١ ص٤٨ ط دار الحديث

بعدها دونت السنة التى كانت محفوظة فى الصدور لأمة أناجيلها فى صدورها وذاكرتها من أعظم ما مَنَّ الله عليها به.

وبعد هذه المقدمة السريعة التى كنت أراها لازمة تجد الحديث برواياته يشير إلى أن هذه المدرسة لها مواصفات وأطوار ينبغى الانتباه لها، ومقاومتها حفاظًا على دين الله ﷻ، وسيأتى ذلك فى الدراسة المقارنة تفصيلًا والآن إلى الدراسة التحليلية:

قال ﷺ "يوشك الرجل متكئا على أريكته": يوشك فعل من أفعال المقاربة يكون اسمه مرفوعًا وخبره مضارعًا غالبًا ما يكون مقرونًا بـ(أن) وقلما أتى مجردًا من (أن) فى بعض الأشعار، وفى هذا الحديث تتبَّعت كل رواياته -فيما تيسر لى- فلم أجده إلا مجردّا من (أن)، والصيغة المقترنة بـ(أن) أدل على القطع والجزم من المجردة، ولعل مجيئه هنا مجرد لبيان أن القطع غير مطلوب هنا وكأن النبى ﷺ يحذر من أمر يراه اقترب وبدت بوادره لكنه يتمنى ألا يقع؛ لذا أتت الروايات كلها دون ذكر(أن)، وعبر بـ"الرجل" اسم جنس لعموم الخطاب فلم يخصص أحدًا بالذكر، وفى بعض الروايات "رجل" نكرة إيغالًا فى الإبهام وعمومية النهى عن الوقوع فى هذا الخطأ من أى أحد، ويصف الرجل بكونه متكئا على أريكته، والأريكة السرير المُزين أو هو سرير خاص، ومن بلاغة النبى ﷺ أن يأتى الوصف حالًا لبيان أن الرجل حالة كونه متكئا على أريكته سيقع فى هذه الخطيئة العظيمة التى قد تُوَصِّل لهدم الدين كله، وهو تعبير يدل على الرفاهية والدِّعة والكَسل؛ فأهل هذا الباب ليسوا علماء ولا طلبة علم ولا عندهم جد فى التحصيل أو البحث عن الحق، بل إن كسلهم وجهلهم ورفاهيتهم هى الداعى

لهذا المنهج السقيم فى التعامل مع الوحى بشقيه كتابًا وسنة، بل فيه إشارة إلى أن هؤلاء سيكونون أهل جرأة وسوء أدب مع السنة وصاحبها ﷺ فسيتلقون الحديث بلا اعتناء ويردونه باجتراء، ورحم الله مالكًا الذى كان إذا جلس لحديث رسول الله ﷺ تطهر وتطيب ولبس أفضل ثيابه أدبًا مع مَنْ سيحدِّث عنه ﷺ.

"يحدِّث بحديث من حديثى": الجناس واضح أثره على القارئ فى لفتة صوتية متوافقة مع المعنى المراد، مع التعبير بالمضارع فى قوله "يحدِّث" للدلالة على التجدد والحدوث والاستمرارية أى أن صاحب هذا الفعل سيتكرر منه ليمثل منهجًا معاديا للسنة محاربًا لها، وقوله "يحدِّث" دليل على أنه سيبدأ بالفِرْية مِنْ عِندِه وسيكون ناشرًا لها بين غيره من أتباعه، وقوله "بحديث من حديثى" لبيان أن الجُرم فى رد أى شىء من سنة النبى ﷺ ولو كان قليلاً، فقد أمرنا ألا نُقدِّم بين يدى الله ورسوله فى قوله تعالى ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾[الحجرات: ١]، ويلاحظ أن الآية بدأت بنداء المؤمنين فى إشارة إلى أن الذى سيمتثل الأدب ويتبع قول الله ﷻ وقول رسوله ﷺ ولا يقدم رأيه عليهما إنما هو من المؤمنين، وعكسه ليس كذلك، وأدل منها قوله تعالى﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ** ﴾[الأحزاب: ٣٦]، وقوله هنا فى الآية "أمرًا" كقوله ﷺ "بحديث من حديثى" فى عمومية النهى عن رد أدنى شىء من كلام الله ﷻ أو كلام رسوله ﷺ، وهذا مستفاد من التبعيض.

"فيقول بيننا وبينكم كتاب الله": التعبير بالفاء يدل على السرعة فى الانتقال من ذكر الحديث إلى رده ورفضه مدعيا الاحتكام إلى القرآن، والتعبير

بقوله "بيننا وبينكم" يدل على الاختلاف مع عموم الناس التى تتقبَّل حديث رسول الله ﷺ بكل صور القبول والإجلال، بل والصدام مع الاختلاف؛ لأنه تعبير يدل على تحاكم الخصمين إلى مُتَّفقٍ على قبوله، وفيه بيان لأن من يحارب السنة سيحاربها بدعوى إجلال القرآن وكونه كافيا مغنيا عن السنة، ومن ثَمَّ إسقاط السنة إلا ما ورد منها متوافقًا مع ظاهر القرآن، ومنه أن أهل الحرب على دين الله ﷻ سيكونون من الذكاء بمكان وسيحاولون عدم الاصطدام بالفطرة الإيمانية لعموم المسلمين، وقوله "يُحَدِّث" وقوله "بيننا وبينكم كتاب الله" دليل على أنهم أهل دعوة وأهل لسان يجادلون به أهل الإيمان، وأنهم ممن يتصدرون المشهد الثقافى فى غيبة العقل كما بينا فى الفصل السابق حديثًا عن الرويبضة.

"فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه": إن أصحاب هذه المدرسة يدَّعون الاحتكام إلى كتاب الله ﷻ وعرض السنة عليه فما أخبرتْ السنة بحِلِّيَّته ووجدوه حلالًا فى كتاب الله ﷻ أخبروا بحليته وقبلوه حلالًا، والتعبير بصيغة الجمع فى إشارة إلى البحث الجماعى فى القرآن عن أصلٍ لهذا الحديث، والمعنى مالم نجده فى القرآن سنرده، وهذا هو مطلوبهم سيصلون إليه بعد تمثيلية هزلية ادعائية، وكذا أهل الباطل فى كل زمان ومكان فتراهم لَسِنين مُتَفَيْهِقِين متعالمين مُدّعين الحفاظ على القرآن وعلى جناب الشرع من الدخيل عليه، وهؤلاء يردُّ عليهم بصريح القرآن الآمِر باتِّباع النبى ﷺ وطاعته فى كل ما أمر به كما سبق وبينتُ قبل الدراسة التحليلية، والجناس واضح دوره فى بيان المعنى واستخدموه هنا لبيان كمال الاتباع للقرآن فهم ينطلقون من القرآن يقبلون ما فيه تلك دعواهم الظاهرة، لكن هدفهم الباطن هو جَحْد السنة وإنكارها.

"ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله": "ألا" أداة تنبيه واستفتاح، والنبى هنا ﷺ يستفتح بها هنا الرد على هذه الفرية ببيان مِثْلِية السنة للقرآن فى التشريع بلاغًا عن الله ﷻ، والتشبيه والتأكيد بـ"إن" واختيار "مثل" دون الكاف لبيان تمام المثلية فى الحكم ووجوب اتباع أمر رسول الله ﷺ مثل اتباع أمر الله ﷻ؛ لأنه ﷺ لا يتكلم إلا بلاغًا عن الله ﷻ، وفيه بيان لاستقلالية السنة بالتشريع وسترد لذلك أمثلة فى بعض روايات الحديث سنذكرها فى الدراسة المقارنة، وانظر إلى قوله "ما حرم رسول الله" فلم يقل ما حرمتُ، ولم يقل ما حرم محمد بن عبد الله لوضع المظهر محل المضمر لبيان الوصف الدالّ على الوظيفة الموجب للاتباع فهو رسول الله ﷺ أى المبلغ عن الله ﷻ، فكلامه مقبول لذلك وإجلاله من إجلال من أرسله سبحانه.

ثانيا: المقارنة بين الروايات:

١-قال ﷺ فى الرواية الأولى "يوشك" وفى الثانية "لا يوشك"، وفى أخرى "عسى" وفى أخيرة "لا ألفين": الرواية الأولى يخبر فيها بقُرب حدوث أمر وهو يحذر منه، وفى الثانية نهى وتحذير من هذا الفعل، وفى الثالثة إخبار بأمر يرجو ألا يحدث، وفى الأخيرة اختلاف عما سبق ففيه "لا ألفين" وهى أتت على صيغة المتكلم المؤكدة بالنون من ألفيتُ كذا إذا وجدته، والمراد نهيهم عن أن يكونوا كذلك من رفض السنة وإن كانت الصورة أنه ينهى نفسه عن أن يجدهم على هذه الحالة، والروايات فيها الترقى فى القوة من الخبر إلى النهى المجرَّدِ ثم النهى المؤكد، وكل رواية أتى فيها بما يناسبها بلاغةً.

٢-فى رواية "رجل" وفى أخرى "الرجل"، وفى ثالثة "أحدكم" فمرة نكرة ومرة معرفة، ومرة بصيغة الخطاب للصحابة فى بيان لأحوال ومراحل، أولًا فى الخطاب بيان إلى أن البداية ستكون قريبة من عهد النبوة بحسن نية وسلامة طوية، ولكنها ستتحول بعد ذلك لسوء نية من أناس يحاربون دين الله ﷻ بدعاوى فارغة، والتعبير بالنكرة مرة وبالمعرفة مرة إشارة إلى أن الأمر سيأخذ مراحل مرة يتكلم فيه المتخصص البائع لدينه طاعة لأعداء الله ﷻ، ومرة يتكلم فيه الجاهل بغير علم فيهرف بما لا يعرف، بل هناك مرحلة تجد النكرات من الناس يتصدرون المشهد ويتكلمون فى دين الله ﷻ بغير علم ويلغون السنة بجرة قلم فى زمن الرويبضات، والدليل على ذلك أن الرواية الأولى فيها "الرجل" بالتعريف ورد فيها "يحدث بحديث من حديثى" وورد فيها "فما وجدنا فيه من حلال استحللناه" بصيغة المتكلم فهو يحدث ثم هو باحث؛ لذا وردت بالتعريف إشارة لمرحلة سيكون فيها المحاربو ن للسنة من المثقفين المتخصصين البائعين للدين، وفى الرواية بالتنكير "رجل" وهى الرواية الثانية ورد فيها "فما وجدتم فيه من حلال" فهو يخاطب أهل العلم فهو نكرة وجاهل متعالم، وأما الرواية التى فيها "أحدكم" فهى خطاب للصحابة فى بيان تحذيرى أن يحدث هذا قريبًا من زمن النبوة، وفى الرواية الثالثة التى فيها التنكير أيضًا فيها "يبلغه الحديث عنى" خلافًا لرواية التعريف ورد فيها "يحدث بحديث من حديثى" فهو فى الأولى مبلِّغ وفى الثانية محدِّث فناسب كل واحدة ما هو أليق بها.

٣-فى الرواية الأولى "متكئًا على أريكته"، وفى الثانية "شبعان على أريكته"، وفى الثالثة "وهو متكئ على أريكته" وفى الرابعة "يتثنى شبعانًا على

أريكته"، فمرة يعبر بالحال، ومرة بالوصف، والحال وصف لصاحب الحال حالة القيام بالفعل فهو وصف جزئى، والمعنى أنه حالة يختار صيغة الوصف يكون الهدف بيان صفة المستغنى عن السنة، وحين يستخدم الحال يكون الهدف بيان حاله ساعة التحديث، ففى الأولى وصف عام للشخص ملازم له يبين أن أصحاب هذه المدرسة المريضة أهل رفاهية ودِعَةٍ وكسل، وفى الثانية يبين عدم أدبهم مع سنة رسول الله ﷺ حالة التحديث بها أمامهم، وفى الرابعة جمع بين الوصف والحال فقال "يتثنى شبعانًا" فالجملة كلها صفة لنكرة؛ لأن الجمل بعد المعارف أحوال وبعد النكرات صفات، وقد اشتملت الجملة على قوله شبعانًا وهو حال ليجمع بين الوصف العارض والملازم.

٤-فى الرواية الأولى "يحدث"، وفى الثانية "يقول" وفى الثالثة "يبلغه الحديث عنى"، وفى الرابعة " يقول" والخامسة " يحدث"، وفى السادسة "يأتيه الأمر" والملاحظ أن الرواية التى فيها "يقول" كالرابعة مثلًا فيها "فما وجدتم" بالخطاب لأنه ليس من أهل العلم، وحينما يقول "يحدث" يأتى معها "فما وجدنا" فى إشارة إلى أنه يحدث عن رسول الله ﷺ، والرواية التى فيها "يأتيه الأمر" فيها "لا أدرى" فى إشارة إلى أنه ليس من أهل التخصص، لكنه فى غيبة العقل مثل هؤلاء يهرفون بما لا يعرفون ويتكلمون فى دين الله ﷻ بغير علم.

٥-فى الرواية الأولى ورد "يحدث بحديث من حديثى"، وفى الثانية ورد "يبلغه الحديث عنى"، وفى الأخيرة "يبلغه الأمر مما أمرت به" ففى الأولى ورد بالتنكير، وفى الثانية ورد بالتعريف، وفى الأخيرة ورد بصيغة أدل على العموم فى

إشارة إلى أن رد قليل السنة كرد كثيرها، ورد مشهورها كرد غيره فى الإثم حالة الاستواء فى الثبوت عن رسول الله ﷺ.

٦-فى الرواية الأولى والثالثة ورد "بيننا وبينكم كتاب الله" بينما فى الثانية ورد " عليكم بهذا القرآن"، وفى الرابعة "عليكم بالقرآن"، ففى الأولى أضاف الكتاب لله ﷻ تشريفًا واختار الكتاب على القرآن، وفى الروايات الثلاث اختار معها "فما وجدنا فيه" بصيغة المتكلم فى إشارة إلى أنه سيتصدى للبحث ويتزيَّا بزى أهل العلم فى الظاهر تمويهًا على العامة لأن الكتابة أعلى من القراءة فكل كاتب قارئ وليس كل قارئ كاتبًا، والتعبير عن القرآن مرة بلفظ الكتاب ومرة بلفظ القرآن موجود فى كتاب الله ﷻ ولكل مواطنه البلاغية، أما حينما قال "عليكم بالقرآن" فلاحظ أنه مقروء وهو الأسهل والأنسب لطبيعة العرب الأمة الأمية التى أناجيلها فى صدورها فقد قال معها "فما وجدتم فيه" بصيغة الخطاب فى إشارة إلى أنه ليس من أهل التخصص وهذا يناسبه القراءة لا الكتابة فأتى مع كل بما يناسبه.

٧-فى الرواية الأولى ورد "فما وجدنا فيه من حلال استحللناه" وكذا فى الثالثة والخامسة، بينما فى الثانية والرابعة ورد "فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه" وفى الأخيرة ورد "وما وجدنا فى كتاب الله ﷻ اتبعناه" وقد مر بك فى الفقرة السابقة أن الحديث بصيغة المتكلم يناسب التعبير بالكتاب، وأن الحديث بصيغة الغيبة يناسب التعبير بالقرآن، وأن الأول يدَّعى أنه من أهل التخصص، وأن الثانى ليس كذلك، لكن هنا فى الرواية الأخيرة قال ما وجدنا فى كتاب الله ﷻ اتبعناه وهى أعلى الصيغ دلالة على العموم فى وجوب اتباع كل ما يأتينا عن

رسول الله ﷺ فى باب الحلال والحرام وغيرهما من العبادات والمعاملات والأخلاقيات والعقائد سواء كان فى كتاب الله ﷻ أو فى سنة رسوله ﷺ فكلاهما عن الله ﷻ كما بينتُ قبل الدراسة التحليلية لكن كان العموم هنا مناسبًا للعموم فى قوله فى أول الرواية الأخيرة "يأتيه الأمر مما أمرت به" فيالها من بلاغة نبوية منقطعة النظير فى لغة البشر.

٨-فى الرواية الثانية ورد "ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى"، بينما فى الرواية الرابعة ورد " لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى" فقد ذكر فى الأولى "ألا" التنبيهية الاستفتاحية بعدما أسس لوجوب اتباع سنته دون عرضٍ على القرآن وعدم ردها بدعوى الاكتفاء بالقرآن بدأ حديثًا تفصيليا يذكر فيه شيئا مما حرمه رسول الله ﷺ ولم يرد فى القرآن، لكنه بدأ بـ"ألا" فى الثانية دون الرابعة وبالنظر فى الروايتين وجدت أن الثانية ورد فيها "هذا القرآن" بينما الرابعة ورد فيها "القرآن" دون اسم الإشارة للقريب، وفى الثانية إضافات أكثر من الرابعة، ولعل ذلك يدل على أنه اكتفى فى الرابعة بالتحريم دون التنبيه لقلة المتحدث عنه بينما الكثرة فى الثانية استدعت التنبيه، ثم إن التعبير بهذا فى الثانية وهى تدل على عظمة القرآن فهو مع عظمته سَهْلٌ فَهْمُهُ مُيسَّر ذكره كما أخبر ربنا ﷻ فى القرآن وكما نرى فى دنيا بنى الإنسان.

٩-فى الرواية الثانية ورد "ولا لقطة معاهد" وفى الرابعة ورد"ولا لقطة من مال معاهد" والروايتان يتعاونان فى الدلالة على أن لقطة المعاهد قليلها وكثيرها سواء وكذا عامها وخاصها كلٌ لا يحل، والمعاهَد بكسر الهاء وفتحها

كلاهما صحيح لغة وفقها، ولقطة المسلم من باب أولى، فياليت قومى يعلمون ولأخلاق الإسلام العظيمة ينتبهون.

١٠-فى الرواية الأولى ورد "ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله"، وكذا فى الخامسة، بينما فى الثالثة ورد دون "ألا" التنبيهية وذلك لأنه فى الثالثة افتتح الحديث بـ"ألا" التنبيهية فاكتفى بها فى مقدمة الحديث بينما لم تذكر فى مقدمة الرواية الأولى، وكذا فى الخامسة لم تذكر فى المقدمة، وينضاف لذلك فى الخامسة أنه قال "يوشك أحدكم أن يكذبنى" فذكر الكذب عليه وهو أمر عظيم يوجب لصاحبه النار فلزم التنبيه فى هذه الرواية بـ"ألا" هذا... ومن جملة البلاغة النبوية العظيمة فى هذا الحديث براوياته أنه فى الرواية الثانية والرابعة بعد أن حذر من ردِّ السنة ادعاءً بالاكتفاء بالقرآن وبعد أن بين أن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله ﷻ فكلاهما بلاغ عن الله ﷻ بعد ذلك ذكر أمثلة لما أخبر النبى ﷺ بحرمته كلحم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ولقطة المعاهد لكن أتى ذلك كله فى لغة بلاغية بديعة فالحلال والحرام لا يناسبه التجوُّز فى التعبير ولا التصوير البيانى فأتى الأسلوب على الحقيقة تصريحًا وتوضيحًا، وأتى كل قيد مقصودًا لعلة فقهية بلاغية فقد قَيَّدَ مثلًا الحمار بالأهلى فى إشارة إلى أن الحمار الوحشى حلال، وهذا من مفهوم المخالفة فى أصول الفقه، وذكر كل ذى ناب فى إيجاز واضح أغنى بالوصف الجامع لأنواع السباع عن ذكر ما لا يُحْصَى من أسمائها وأصنافها وتلك بلاغة سيد البشر ﷺ.

وختامًا:

فإن تنوع الروايات دل على أن الحرب على السنة ستأخذ مراحل فتبدأ بجهل، ثم بعد ذلك تتحول إلى الحرب الخبيثة المقصود بها حرب الدين ونَسْفِه من أصله، وبين أن الهجوم على السنة سيكون فى بعض المراحل من المنتسبين إلى العلم الذين سيبيعون آخرتهم بدنيا غيرهم، وفى بعض المراحل سيكونون من الجهلاء الذين يقودون المشهد فى زمن الرويبضات، وفى زمن الغثائية لن تجد السنة من يدافع عنها إلا فيما ندر ممن لا يخاف إلا الله ﷻ -نسأل الله أن يجعلنا وأشياخنا منهم-.

واختلاف الروايات دلَّ على أن النبى ﷺ غالبًا حدَّث بهذا الحديث مرارًا وفى كل مرة يتحدث عن حالة وعن مرحلة معينة من الحرب على السنة، وكأنى به ﷺ يرى ما نحن فيه الآن ويوصف حالنا، بل هذا دليل على أن هذه الروايات لا تخرج إلا من مشكاة النبوة، فإن الحرب على السنة الآن يتزعمها أهل الحداثة وحداثتهم مبنية على أمرين الأول إلغاء السنة بدعاوى فارغة، والثانى أَنْسَنَةُ القرآن أى التعامل معه كنص بشرى يأخذون منه ما يحْلُو لهم ويدَعُون ما لا يحلو لهم، بل منهم من يفسر النص على هواه يخْرجه من سياقه ويقحم عليه من المعانى مالا تدل عليه لغة العرب ولا أفْهام أبنائها فى جرأة عجيبة على كتاب الله ﷻ حربًا على الشريعة وضربًا لها فى الصميم، والروايات الخمس الأولى وإن كانت اتفقت فى الصحابى الناقل عن النبى ﷺ إلا أنها اختلفت فى بقية السند، فلا يبعد أن يكون الصحابى سمعه أكثر من مرة من رسول الله ﷺ، ومع ذلك فإن الرواية السادسة عن صحابى آخر مما يرجح أن النبى ﷺ حدَّث بالحديث أكثر من مرة، ومما يدل على ذلك أيضًا الاختلاف البلاغى بين الروايات مما يجعلها تتحدث عن مراحل مختلفة من الحرب على السنة -والله أعلم-.

الخاتمة

كنت أنوى أن أجعل هذا الحديث فصولًا ثلاثة أتحدث فى الأول عن الاختلاف فى الرواية فى الحرف وما ترتب عليه من علة بلاغية، وأن يكون الثانى للاختلاف فى الاسم، وأن يكون الثالث للاختلاف فى الفعل على أن أُعَمِّمَ دائرة البحث فى السُّنة لأبحث عشرات الأحاديث، لكنى وجدت أن هذا سيكون تشتيتًا للقارئ، واستخرت الله ﷻ أن أدرس هذه الأحاديث الثلاثة كاملة برواياتها المختلفة وسيرد فيها اختلاف الحرف كـ"إلى قصعتها" و"على قصعتها" فى الحديث الأول، وسيرد فيها اختلاف الاسم كـ"حب الدنيا" و"حب الحياة" فى نفس الحديث، وكـ" الرجل التافه" و"الفويسق" فى الحديث الثانى، وسيرد فيها اختلاف الفعل كـ"يوشك" و"عسى" و"أُلْفَيَنَّ" فى الحديث الثالث، واخترت ذلك لعموم نفعه بشرح الحديث كاملًا، واخترت هذه الأحاديث الثلاثة لمناسبتها لواقع المسلمين وخير الأبحاث ما كان مفيدًا للواقع وذلك أن الأمة تعانى من الغثائية منذ زمن بعيد، بل إن واقعنا هو الذى أَكَّدَ لِى أن كل رواية من روايات الحديث تتحدث عن مرحلة من مراحل ضعف الأمة وغثائيتها كما بينت أن رواية (إلى قصعتها) تتحدث عن مرحلة الإعداد الخارجى من العدو للانقضاض علينا وهى تمثل مرحلة التسعينيات من القرن المنصرم، بينما رواية "كما تداعى الأكلة على قصعتها" تمثل مرحلة دخول البلاد واقتسام خيراتها وتشريد أهلها واستباحة أعراضها كما فى الألفية الثالثة إلى الآن، ومن عجيب أن رواية "إلى" ورد معها "حب الدنيا" أى الشهوات والملذات صرفت الناس عن

الاستعداد للعدو، بينما رواية "على" ورد معها "حب الحياة" أى دخل العدو وقتل واغتصب فلماذا لم نقاوم؟ فكان الرد أريد أن أعيش وهذا معنى حب الحياة، وكذا حديث الرويبضة يتحدث عن مراحل الرويبضات فمرة يتكلمون فى أمر العامة، ومرة يكونون هم الرؤساء والأمراء، ومرة يكونون من أهل التفاهة ومرة من أهل الفِسْق، وفى الأخير دلَّت الروايات على مراحل حرب سنة النبى ﷺ وبَينت أنها ستكون ابتداء بِحُسْنٍ طوية، ثم تتحول انتهاءً إلى خبث وسوء طوية بل وانعدام دين كما مر بك، ولقد اخترت هذه الأحاديث الثلاثة لأنها ذكرت الداء والدواء كما مر بك، وليظهر لك أنه بالبلاغة النبوية استطاع الحبيب ﷺ أن يذكر الداء ومراحله والدواء وكيفياته، وهناك أحاديث فيها اختلاف روايات لعلة بلاغية لكنها لم يترتب عليها اختلاف كبير يدل علي اختلاف المراحل كأحاديثنا الثلاثة من مثل حديث الصخرة الذى رواه البخارى ومسلم من حديث ابن عمر، وفيه "إنه كان لي أبوان كبيران كنت أرعى عليهما"، فقد ورد فى البخارى ثلاث روايات بلفظ "أبوان"، بينما وردت روايتان بلفظ "والدان"، وقد بينت في بحث آخر أن قوله "أبوان" تغليب للأب علي الأم لأن كل إنسان له أب وأم، بينما "والدان" تغليب للأم على الأب، لأن كل إنسان له أم ولدته فالذى يلد هى الأم لذا تجدهم يقولون ولدت فلانة ووُلِد لفلان لأن الأب لا يلد، فالوالدان تغليب للأم على الأب، والبلاغة القرآنية علمتنا أن القرآن يُغلب الأب على الأم حينما يكون الحديث عن النفقة والإرث والمال عمومًا؛ لأن الإنفاق وكسب المال وظيفة الرجل لذلك قال القرآن ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾[النساء:١١]، وإذا كان الحديث عن البر والإحسان غلَّب الأم على الأب فقال﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

[النساء:٣٦]، و[الأنعام:١٥١]، و[الإسراء:٢٣]، وذلك لأن الأم أكثر عطاءً من الأب والمقدمة فى الإحسان على الأب كما أخبرت السنة بذلك، وإن أردنا تطبيق ذلك على الحديث وجدنا أن الرواية التى ذكرت "أبوان" راعت أن الابن يتحدث عن إنفاقه على أبويه، والرواية التى ذكرت "والدان" راعت أن الابن يتحدث عن بره لوالديه، ومن عجيب بلاغة النبيﷺ وتوفيق الله ﷻ للبخارى –رحمه الله– أن الروايات التى فيها "أبوان" ذكرها في كتاب البيوع، وكتاب الإجارة، وكتاب الأنبياء، بينما رواية "والدان" ذكرها فى كتاب الأدب باب إجابة دعاء من برَّ والديه، فلله درك يا بخارى[1]

وختامًا:

وما أبرئ نفسى إننى بشر ∴ أسهو وأخطئ ما لم يحمنى القدر.

❁❁❁

(١) ينظر صحيح البخارى، ط الرسالة، ت عز الدين ضلي، وعماد الطيار، وياسر حسن، حديث رقم٢٢١٥ص٦٢٦،رقم٢٢٧٢ص٦٣٩، رقم٢٣٣٣ص٦٥٤، رقم٣٤٦٥ص٩٠٠، رقم٥٩٧٤ص١٤٣٨، كما ينظر الخصائص البلاغية للقصة النبوية دراسة تطبيقية على حديث الصخرة بحث للكاتب ط مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق سنة ٢٠٠٧

المصادر والمراجع

١- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، ط دار الحديث.

٢- سنن أبى داوود، ط بيروت.

٣- سنن ابن ماجة، ت محمد فؤاد عبد الباقى، ط دار الحديث.

٤- سنن الترمذى، ط بيروت.

٥- صحيح البخارى، ط الرسالة، تعليق عز الدين ضلى، وعماد الطيار، وياسر حسن.

٦- مسند الإمام أحمد، ت الشيخ أحمد محمد شاكر، ط دار الحديث.

٧- مسند الإمام أحمد، ت شعيب الأرنا ؤوط، ط الرسالة.

٨- المفردات للراغب الأصفهانى، ط دار المعرفة بيروت.

٩- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى، ط دار المعرفة وفي باب الأبحاث العلمية والحوليات.

١٠- الخصائص البلاغية للسنة النبوية دراسة تطبيقية على حديث الصخرة بحث للدكتور محمود شعبان، ط مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق سنة ٢٠٠٧.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٤٩٠٧
التمهيد	٤٩١٠
الحديث الأول	٤٩١١
الحديث الثانى	٤٩٣١
الحديث الثالث	٤٩٤٢
الخاتمة	٤٩٥٦
المصادر والمراجع	٤٩٥٩
الفهرس	٤٩٦٠